الأماكن التي أزيلت عنها سلطته. وللتذكير فقط، فقد حدث ذلك قبل ظهور التنظيمات الوهابية المسلّحة بسنة على الأقلّ، الأمر الذي يضع تعليق اليسار ذاك جرائم المعارضة على مشجب ما يسمّى «داعش» موضع الشكّ. قدّرت وقتها مع أوّل ظهور مسلّح للمعارضة أنّها ستفقد «شعبيتها» خارج بيئاتها المباشرة سريعاً، فهي لم تكتف في أماكن كثيرة بإخراج النظام وتفكيك سلطته الأمنية فحسب (يا ليتها فعلت، أقلّه كي تخرسنا جميعاً)، بل بدأت أيضاً تواجه المجتمع وتطالب أجزاءه غير الموالية لها بالامتثال لسلطتها.

كلّ ذلك كان يحدث داخل الواقع وعلى مرأى ومسمع الرفاق في اليسار الامتثالي، ومع ذلك فضّل هؤلاء السكوت والتعامل مع التحوّلات التي اعتادوا التعامل معها، فهي ليست مكلفة بالنسبة إليهم، وبالتالي تجاهلها أفضل من التطرّق إليها والإشارة بالاسم إلى ممارسات قد تكلّفهم غالياً، وتضعهم خارج جنّة الثورة العظيمة. من هذه الممارسات، كما سبق وذكرت، وسأبقى أكرّر، التعرّض المستمرّ للموالين والمتردّدين الفقراء بالخطف والقتل والنّهب، وترك الأغنياء منهم بمجرّد تلويحهم بالفدية. ثمّة تطوّرات كثيرة أتت بها الحرب بعد ذلك، لكنها لم تترك الأثر ذاته على الفقراء الذين فوجئوا «بالثورة» وبممارساتها. فحين تعرّضت «البيئة نفسها» - الموالية وليس الفقيرة - للخطف والنّهب لاحقاً على أيدي مافيات النظام، لم تشعر بالغدر كما يفترض بها أن تفعل، والسبب في ذلك أنّ النهب هنا كان «ذا ملامح طبقية» فعلاً. مافيات النظام المتكوّنة بمعظمها من فقراء أتخمت بما نهبته هناك من أموال الأغنياء والميسورين، وهذه ديناميّة جديدة بعض الشيء ومنفصلة عن آليّة التوزيع التي تقوم بها الحرب، وتفرض بموجبها على فقراء المعارضة النزوح من بيئاتهم باتجاه البيئات الموالية التي توجد فيها أسواق لتصريف المنتجات وتدوير الأموال. باختصار، النظام الفاشي راعى بيئته قليلاً ولم ينهب إلّا من أغنيائها، وفضّل أن يستمرّ بتهجير فقراء المعارضة وحدهم، وهذا ما هون عليه القتال الميداني على اعتبار أنّ قاعدة ميليشياته الرديفة أصبحت كلّها من الفقراء الذين أفقدهم التضخّم وارتفاع الأسعار «مدّخراتهم» القليلة. ولذلك بالتحديد يقاتل هؤلاء بضراوة الآن، ليس دفعاً للفاقة و«العوز» فحسب، بل للانتقام كذلك ممّن أفسدته آلية توزيع الأموال داخل «الثورة» وجعلت منه وهو الفقير المعدم عدوّاً وخصماً لنظيره في الفقر والحرمان. تجاهل اليسار المحسوب على «الثورة» لهذه الحساسيّة بالذات أضعف من موقفه الطبقي تجاه السلطة، ووضعه في مواجهة حقيقية مع فقراء الموالاة؛ فهو بهذه الوضعية لم يعد قادراً على «استعمال يساريته» واتهام السلطة وحدها بأنّها أداة بيد الأغنياء وأصحاب الرساميل. الأرجح كذلك أنّه عبر تخلّيه عن دوره الطبيعي إلى جانب الفقراء، كلّ الفقراء، ترك المجال لآخرين كي يؤدّوا الدور الذي يفترض به نصيراً «للثورة» ومنظّراً لها أن يقوم به. كلّ الرفاق داخل اليسار المحسوب على «الثورة» فعلوا ذلك ولا أستثني منهم أحداً: سلامة كيلة، ياسين الحاج صالح... إلخ. بهذا المعنى لا يحقّ لهم أن ينتقدوا ناهض حتّر؛ فهم مثله، يصطفّون حيث يسهل الاصطفاف، وحيث يتعذّر التمييز بين اليسار وعكسه. ماذا أقول أكثر من ذلك: «تبّاً» ليسار كهذا وليساريين كهؤلاء، وبالفعل هذه المرّة... لا عزاء للفقراء، كلّ الفقراء.

* كاتب سوري

وهناك مناطق لا يزال الاستعصاء فيها يهدد كل المجتمع المكون بنسف كل العوامل المشتركة لشركاء وطن الأمس.

كل هذه التنويعات في النواتج القريبة للثورات العربية لا تجعل «المجتمع المدني الموحد بقواسم جامعة متوافق عليها «نتيجة سهلة المنال وقريبة ومؤكدة التحقق كما هي عملية التدمير الذاتي التي تجري على قدم وساق في مجتمعاتنا، إن كانت للبنى التحتية للوطن أو لتمزيق الشعب إلى انقسامات أفقية أو شاقولية تبعاً للطوائف والأديان والأعراق والقبائل والانتماءات الأخرى أو عندما يقتصر التدمير الذاتي بنسف القوانين الاجتماعية الناظمة وترك المجتمعات رهينة مخاض فوضى عامة تكرس الحرية الشخصية ومتطلباتها المتزايدة والمتناقضة كأهم هدف لها بحيث يصبح تحقيقها في مجتمع مضطرب ضرباً من المستحيل.

إن تعبير «الشعب يريد إسقاط النظام» متناقض بحيث لا تستقيم كلماته على سطر واحد.

فمن يستطيع أن يدعي - مهما كبر تمثيله - أنه يمثل الشعب بكل تنويعاته واختلافاته ومطالبه المتناقضة في أحيان كثيرة؟ بينما يتركهم إسقاط النظام إلى فوضى عارمة تطيح كل قوانين الاستقرار الاجتماعي وتهدد بانقسامات وتشظٍّ مجتمعي رهيب، وخاصة في بلدان مبنية على هذا التنوّع. أفرزت بعض «البلدان المتجانسة» في أماكن «الثورات» بعد تحقق سقوط أنظمة الحكم انقسامات غير مسبوقة، إن على أساس الدين أو على طريقة تطبيقه أو على أسس أخرى أقل أهمية، وهي ما زالت تهدد «البلدان المتنوعة» بحدوث زلازل وتسوناميات مجتمعية إذا نجحت في تحقيق مأربها.

ومما يثير السخرية، ذلك القول الذي يردد ببغائياً أنّ الثورة الفرنسية والإنكليزية قبلها قد أخذت قرابة القرن لتحقق مآربها وإنجازاتها، وكأنه المطلوب حالياً إدخال أجيال متعددة من المنطقة في دهليز التاريخ واللعب بمصائرها وتسليفها عقوداً من التخبط والفوضى، التي قد لا توفر الدماء والأعراض والأرزاق في شكل يناقض رسالة الإنسان ذاته.

لعل الطريقة الأمثل للتغيير هي الهجوم المجتمعي - بعد تنويره بالوعي والثقافة والعلم - على الآفات الفاسدة في النظم العربية مثل الاستبداد والديكتاتورية والتسلط الأمني والظلم الاجتماعي والتبعية والفقر وتفكيكها وضرب أسباب وجودها، والقناعة بأن الحكم الناظمة للدول ما هي إلا صورة منعكسة من أخلاق المجتمع وهيئته.

وخلال ذلك يجب المحافظة على الثوابت والمشتركات وتعزيزها بدل نسفها والتخلص منها والبحث الواهي عن بديل متخيل قد لا يأتي في زمن الشعارات الشخصية الذاتية.

* كاتب سوري

المشرقية والقومية العربية... تناقض أم تكامل؟

عبد الله بن عمارة *

استطاعت فكرة المشرقية أن تقتحم حقل السجال الفكري والسياسي في الساحة الثقافية المشرقية، بل والعربية عموماً، طارحة أسئلة تقع في صميم الإشكالات التي من خلالها بدأت تتأطر ضمن بنية فكرية تتشكل معها أسس معرفية جديدة لبديل نهضوي واعد، لذا كان من الطبيعي أن تثير بعض هذه الإشكالات المعرفية أسئلة لدى البعض، وخصوصاً ما تعلق بماهية البنية الفكرية الناظمة لمفهوم المشرقية وعلاقتها بالقومية العربية كمشروع طامح إلى توحيد العرب ونهضتهم في إطار دولة - أمة؟ أو هل يشكل المشروع المشرقي نقيضاً للمشروع القومي العربي أم إطاراً فكرياً مكملاً له؟ طرحت فكرة المشروع المشرقي بأدبيات مختلفة قبل بضع سنوات، إلا أن الأحداث في سوريا هي التي أعطتها دينامية جديدة للتموضع ضمن نسق فكري يستمد قوته من الواقع التاريخي الذي قوامه حجم التفاعلات والتداخلات بين مكونات هذا الفضاء الجيوسياسي المشرقي، ومركزية سوريا ضمنه، ولأن أسس هذا المشروع الفكرية ما زالت في إطار التشكل محاولة طرح رؤية شاملة تستند إلى المضامين السياسية كما السوسيولوجية والتاريخية والاقتصادية الناظمة لهذا المشروع، فإن الأسئلة التي تطرحها بعض التيارات القومية العربية تدفع بكل منظري المشروع المشرقي، إلى التسريع في محاولة مقاربة هذه التساؤلات بموضوعية، من طريق فتح الساحة الثقافية العربية أمام نقاشات سياسية وفكرية من أجل الوصول إلى تبيان الكثير من نقاط الالتباس، من بينها اعتبار المشروع المشرقي نواة

> هناك فضاءات جيوسياسية ضمن الفضاء الأوسع للأمة العربية تجمعها خصوصيات مميزة عن غيرها

لمشروع «انفصالي» عن الفضاء العام المشكل للأمة العربية، بما يمهد لفصل مشرق هذه الأمة عن باقي أجزائها، والارتياب من العلاقة الاستراتيجية التي رسختها الأحداث بين سوريا كمركز لهذا المشرق وإيران، واعتبار المشرقية إطاراً فكرياً جامعاً لأعداء العروبة من هويات فرعية إثنية أو دينية.

لا جدال في حقيقة الرابطة القومية بين العرب المستندة إلى مشتركات اللغة والتاريخ والمصير، والتي تجعل من القومية العربية أساساً موضوعياً لانتظامهم ضمن مشروع دولة – أمة، لكن الواقع يؤكد وجود فضاءات جيوسياسية ضمن الفضاء الأوسع للأمة العربية تجمعها من الخصوصيات – اللغوية والثقافية والتاريخية والحضارية – ما يميزها عن غيرها. كما في شأن المغرب العربي مثلاً الذي يشكل «إقليماً» مميزاً بحكم وحدته السيوسيو – ثقافية المتعلقة بتقارب اللهجات والتاريخ والتكوين الإثني المشكل من الثنائية العربية – الأمازيغية، تماماً كما تشكل دول الخليج بما تملكه من خصوصيات، فضاءً جيوسياسياً واحداً، فيما تعتبر مصر بذاتها فضاء جيوسياسياً خاصاً. وبالتالي فليس غريباً الحديث عن المشرق كفضاء جيوسياسي واحد مكون من سوريا الطبيعية – بلاد الشام – والعراق، مع كل ما يملكه هذا الفضاء من روابط حضارية وتاريخية رسختها الأحداث في سوريا الآن من جهة ومن «ريادية» في صيرورة المشروع النهضوي العربي من جهة أخرى. إن الثقافة العربية باعتبارها العامل المؤسس للوحدة العربية والرافد الجوهري للنهضة العربية، عرفت انبعاثها وتطورها على يد نخبة سوريا الطبيعية – بلاد الشام – من خلال تحديث اللغة العربية وآدابها وتطوير الصحافة؛ فالمضمون المعرفي لمشروع النهضة العربية تأسس بنيوياً من داخل نسق البيئة السورية الطبيعية، بحيث إننا نستطيع الجزم بأن كل المباحث المفصلية للخطاب الفكري للنهضة العربية كالعلاقة بين العروبة والإسلام وتحرير الإنسان والاستقلال والوحدة والعلمانية... إلخ تشكلت ضمن هذه البيئة. كذلك أن الإطار الابستيمي (وفق تعبير ميشال فوكو) للمشروع القومي العربي كإطار جامع يطمح إلى وحدة الأمة العربية ونهضتها نبع من نفس هذا الفضاء السوري؛ فسوريا هي منبع الفكرة القومية العربية، وفي بيئتها تشكلت البنية الفكرية والمعرفية للحركة القومية العربية بكل تلويناتها الإيديولوجية، سواء تلك المتماهية مع حركات الإصلاح الإسلامية التي بدأت كرد فعل طامح إلى التحرر من السيطرة العثمانية الطورانية، أو التي تشكلت ضمن إطار علماني – حداثي تبنته نخب من المسيحيين المشرقيين. فسوريا باعتبارها مركزاً لهذا المشرق وقطباً محورياً للأمة العربية ورائدة للنسق التحرري الاستقلالي فيها بحكم صدامها الحتمي مع المشروع الاستعماري – الذي لم يكتفِ بتقسيمها إلى أربعة كيانات بل تعداه إلى خلق كيان توسعي عنصري في قلبها – لا يمكن أن تشكل رافداً لأي مشروع ذي نزعة انعزالية يتقاطع مصلحياً مع المشروع الأميركي والصهيوني، الذي يشكل تقسيم المنطقة على أسس طائفية وإثنية عاملاً مؤسساً فيه؛ فالمشروع المشرقي الذي ينطلق من محورية سوريا يتناقض بنيوياً مع مشاريع الانعزال التي استندت إلى استحضار الخصوصيات الحضارية والإثنية، وتأطيرها إيديولوجياً لتبرير التموضع في هويات جزئية مناقضة للانتماء العربي، كما في لبنان مع بعض القوى المسيحية أو في التيارات التي حاولت تبني طرح الانتماء الفينيقي أو الكنعاني أو الفرعوني في أكثر من بلد عربي في النصف الأول من القرن الماضي. ذلك أن جوهر الطرح المشرقي هو وحدوي بالأساس ضمن هوية مشرقية جامعة معادية لأي نزوع طائفي وغير منفصلة عن الانتماء العربي الحضاري الذي يعطي للعروبة مفهوماً حضارياً ثقافياً جامعاً يستوعب الاختلاف ضمن أطر غير الغائية لأي مكون إثني ضمن هذا المشرق. وهذا في حد ذاته النقيض الجوهري للمشروع الاستعماري القائم على إبراز الهويات الجزئية وتشجيعها على تأكيد كيانيتها لتبرير الوجود الصهيوني، كذلك فإن مركزية سوريا في الصراع مع المشروع الصهيوني جعلت منها الحامل الرئيسي لعبء هذا الصراع الوجودي والعامل المحوري في إقامة التحالفات والتخندق مع أي مشروع استقلالي معادٍ للمشروع الصهيوني والأميركي الداعم له. وهذه هي فلسفة تحالف الدولة الوطنية السورية مع إيران التي بدورها تنتظم في إطار مشروع وحدوي، بمفهوم الهوية الجامعة التي تجمع خمس قوميات، لا بالمفهوم القومي الضيق الذي يروج له من بعض الأوساط القومية التي ما زالت تنهل من «تراث قادسية القرن العشرين»، والتي لم تتمكن إلى الآن من الانخراط في عملية نقد ذاتي ومراجعة فكرية تخترق الجدران الدوغمائية التي أحاطت ببنيتها الفكرية، كانت ستوصلها حتماً إلى صوابية رؤية الرئيس حافظ الأسد الاستراتيجية في تحالفه مع إيران من موقعه القومي العربي الحقيقي المشبع برؤية مشرقية، تعي مركزية سوريا في المشرق وموقعها الريادي العربي في قلب الصراع مع المشروع الصهيوني، في مقابل مغامرات كارثية تعيد إنتاج نفسها من مواقع «قومية عربية» أخرى.

إن المشروع القومي العربي الذي تشكل قضايا الوحدة العربية والصراع مع إسرائيل والنهضة عناصر رئيسية في بنيته المعرفية والسياسية هو حتماً سيرى في معركة سوريا اليوم بمركزيتها في المشرق وبمحوريتها في قلب الأمة العربية، معركة العرب الكبرى ضد قوى الاستعمار وأدواته الوظيفية الرجعية والصهيونية. المعركة التي في ضوء نتائجها سينبعث المشروع المشرقي الجديد الذي يؤسس للمشروع النهضوي النموذجي لكل الفضاءات الجيوسياسية العربية الأخرى في مصر، التي تعيش حراكاً قد يشكل إرهاصاً لقيام بديل تحرري قومي نهضوي، أو في الخليج الذي يمكن بعض قواه التحررية أن تطيح الهيمنة الوهابية عليه أو في المغرب العربي الذي يعيش أحلام النهضة والوحدة. المضمون الجوهري لهذا النموذج هو التحرر من التبعية للإمبريالية، ومشاريعها التقسيمية المعادية للدول الوطنية والداعمة للهويات الجزئية، وإطلاق المشروع التنموي المستقل عن منظومتها النيوليبرالية والانتصار الحاسم على الصهيونية وكيانها المصطنع. إن مشروعاً نموذجياً بهذه الأهداف هو بالتأكيد مشروع مكمل لمشروع الوحدة والنهضة العربية، وليس نقيضاً له.

* كاتب جزائري